رق غرب إلى رحاب الإنسانية

الغرب إلى جوهر قائم بذاته والتعامل معه على أنّه كيان ثقافي متجانِس وموحّد يمتدّ في خط مستقيم من إيسكيلُس الإغريقي إلى كارل ماركس.

ثالثاً، ينفي سعيد الزعم بأنّ غرض كتاب «الاستشراق» هو الدفاع عن شرق حقيقي يشوّهه الاستشراق الغربي، فيؤكد: «لقد اعتمدت في نقدي [للاستشراق] على الطبيعة المغلوطة لكل التمثلات بسبب ارتباطها الوثيق بالدنيوية، أي بالسلطة والموقع والمصالح. وقد اقتضى ذلك أن أجاهر بأنّ كتابي لم يكن معدّاً للدفاع عن الشرق الحقيقي، بل إنّه لم يكن يطرح فكرة وجود شرق حقيقي أصلاً. والمؤكد أني لم أكن أنافح عن نقاوة تصوّرات ضد أخرى، وكنت واضحاً جداً في اقتراحي أنّ كل مسار تحويل التجربة إلى تعبير لا يمكن أن يكون منزّهاً عن التلوّث. والمسار ملوّث أصلاً وبالضرورة لتورطه بالسلطة والموقع والمصالح، أكان ذلك من موقع الضحية أم لم يكن» (سعيد، الانسنية، 70).

هكذا استبدل سعيد ثنائي «معرفة / قوة» بثالوث «سلطة / موقع / مصالح»، أي السياسة والموقع الجغرافي (شمال / جنوب) والمصالح الاقتصادية والطبقية، وهو تعيين أشمل للمحدّدات التي تتحكم بتفكير الجماعات البشرية وسلوكها.

رابعاً، إذ ينتقل سعيد إلى التمثّلات الشرقية للذّات والآخر، ينتقد مرض «الغُراب» (occidentosis)، أي اللوم العُصابي للغرب على كل الويلات النازلة بالشعوب المستعمرة. ويرفض «نظريات المؤامرة». إلا أنّه يوجّه النصل الحاد في نقده إلى النعرة البلدية nativism: «.. إنّ القبول بالنعرة البلدية يعني القبول بكل مستتبعات السيطرة الإمبريالية: كل الانقسامات العرقية والدينية والسياسية التي فرضتها الإمبريالية هي ذاتها. إنّ مغادرة العالم التاريخي لمصلحة غيبيات الجواهر مثل النعرة الزنجية أو الايرلندية أو الكاثوليكية تعني مغادرة التاريخ لمصلحة نعرات جوهرانية تحمل الطاقة على استعداء البشر بعضهم ضد بعض» (سعيد، الثقافة والإمبريالية، 276). ويمكننا أن نضيف النعرة الإسلامية إلى لائحة النعرات البلدية.

يعود سعيد في رائعته الأخيرة، الصادرة بعد الوفاة، إلى نقد إيديولوجيات الانتماء والهوية على أنّها أخطر ما خلّفه العصر الإمبريالي، في نص يرقى إلى مستوى الوصية الفكرية: «إنّ الهوية هي العملية التي تتسلط بها الثقافة الأقوى والمجتمعُ الأرقى بواسطة العنف على شعوب يتقرر أنها شعوب دونية، بمقتضى عملية فرض الهوية تلك. إنّ الإمبريالية ما هي إلا عملية تصدير للهويات» (إدوارد سعيد، On Late Style ـ في الأسلوب المتأخر، 2006، ص 85). درءاً لمثل هذه الأخطار، وهي تحديداً أخطار «تشريق» الشرقيين، ينضمّ سعيد إلى فرانتس فانون في الدعوة إلى تحويل الوعي الوطني ـ القومي، الذي ساد فترة النضال ضد الاستعمار، إلى وعي اجتماعي في الحقبة الاستقلالية، أي الانتقال من التحرر الوطني ـ القومي من المستعمر إلى التحرر الاجتماعي الداخلي، أي بناء مجتمع الحرية والمساواة وبناء الثقافة الجديدة على أنقاض ثقافة المستعمر والمجتمع التقليدي.

بالتحرر الاجتماعي يغادر سعيد ثنائي شرق / غرب نهائياً، بما فيه من سيطرة ومقاومات للسيطرة، داعياً إلى «اكتشاف عالم ليس مبنياً على جواهر متعادية».

اللحظة الثالثة: إلى الإنسانية العلمانية

مثّلت دعوة سعيد إلى اسكتشاف عالم «ليس مبنياً على جواهر متعادية»، علامة الانتقال من نقد الاستشراق ونقد الاستغراب إلى النظرية الإنسانوية العلمانية، بما هي الأوج والخاتمة في تطوره الفكري. لم تكن النقلة مفاجئة، بل كانت تختمر في اللحظتين السابقتين بركيزتها الفلسفية التي تقول إنّ البشر يصنعون تاريخهم بأنفسهم وإنّ مفاتيح فهم هذا العالم هي في هذا العالم. (الانسنية، ص 70-71).

بعد هذا العرض لتطور فكر إدوارد سعيد، يمكن إلقاء بعض الأضواء على وجه منسيّ من شخصيته الفكرية ودور مهمل من أدواره.

ترجمة ومترجمون

يشير إدوارد سعيد، في أكثر من مكان، إلى أنّ الاستشراق لا يكتفي بالنطق باسم شرقيين، لادعائه عجزهم عن التعبير عن أنفسهم، بل يزعم أيضاً امتلاك «الترجمة الرسمية» لكل ما هو شرقي أو صادر عن الشرق (الاستشراق، ص 203، 222). يقوم نقد إدوارد سعيد للاستشراق على سلسلة من الأدلّة والحجج والبراهين تثبت أنّ «المترجم» يحرّف في النقل من لغة إلى أخرى ويتلاعب، تحديداً بسبب عدم قدرته على التحرر من مركزيته الأورو ـ أميركية. في مقابل ترجمة المستشرقين العييّة، ينهض إدوارد سعيد بما هو «مترجم» بذاته.

> ينتقد سعيد مرض «الغراب» أي اللوم العصابي للغرب على كل الويلات النازلة بالشعوب المستعمرة

إدوارد سعيد عربي يكتب بالإنكليزية. أمضى حياته البالغة «يترجم» فلسطين إلى لغة المستعمر، التي تعلّمها في مدرسة خصوصية في مدينة القاهرة، حيث لجأت أسرته بعد احتلال الصهاينة فلسطين. إلا أنّ سعيد يتعامل ولغة المستعمر على طريقة كبار الكتاب والأدباء المناهضين للاستعمار في القارات الثلاث: بالتخريب وكسر المحرمات والتفوق على أصحاب اللغة الأصليين عن طريق الابتكار والتخييل والإبداع. هكذا تصير الكتابة بلغة المستعمر فعل مقاومة بذاتها.

ثم إنّ علاقة إدوارد سعيد بالعالم العربي فعل ترجمة هي أيضاً. فالصدمة التي دفعت الجامعي العربي ـ الأميركي الى دراسة نتاج المستشرقين، كانت هزيمة الجيوش العربية على يد إسرائيل في حرب حزيران 1967 وما تبعها من احتلال كامل فلسطين التاريخية إضافة إلى صحراء سيناء ومرتفعات الجولان. وإنّه لمعبّر جداً أن يكون رد فعل إدوارد سعيد الفوري على صدمة الهزيمة هو قراره تعلم اللغة العربية. من هنا تضافرت صدمة نكسة 1967 واستعادة اللغة الأم على تكوين الحدث التأسيسي الذي استولد إدوارد سعيد الآخر. إدوارد سعيد المثقف العمومي والمناضل الذي نعرف، في مقابل إدوارد سعيد الآخر الذي تعرفنا إليه في «خارج المكان».

لذا ينبغي تصنيف إدوارد سعيد في عداد فريق المثقفين العرب الذين فجّرت نكسة 1967 طاقاتهم الخلّاقة والغضب. ضمن هذا الفريق مارس سعيد «الترجمة» مجدداً، وهي الاسم الآخر لصيغته المحببة عن «تحويل التجربة إلى تعبير». آلى على نفسه أن يعبّر عن تجربة المخاض الفكري النقدي الجذري وعن الحركات التحررية والثورية لحقبة ما بعد نكسة 1967، وأن يسكبها في اللغة المفهومية لغرامشي وفانون وولیامز وبولانتزاس وستيوارت هِلّ وسواهم. سلّط سوط النقد على الأنظمة الاستبدادية والدكتاتورية لعجزها عن مواجهة الإمبريالية والصهيونية ولقمعها شعوبها، مع أنّ نقده الأنظمة الشعبوية العسكرية كان أبرز وأقسى من تناوله الأنظمة السلالية النفطية المحافظة والموالية للغرب. طاول نقده أيضاً حركات التحرر العربية وفي مقدمها تلك التي التزم بها ـ منظمة التحرير الفلسطينية. عارض اتفاق أوسلو 1993 ـ الذي وصفه بـ«سلام الضعفاء» ـ لأنّه نتج من قراءة مغلوطة للاستراتيجيات الأميركية والإسرائيلية من القيادة الفلسطينية، التي ما لبث أن قطع علاقاته بها. ولم يُعفِ سعيد مثقفين عرباً من النقد، كما في حال الذين تضامنوا مع المفكر الفرنسي روجيه غارودي لإنكاره المحرقة اليهودية (راجع: لوموند ديبلوماتيك، آب ـ أيلول 1998).

لم يكلّ إدوارد سعيد يوماً عن ممارسة دوره في «ترجمة» الاستراتيجيات الأميركية إلى لغة مواطنيه العرب، مقترحاً أين وكيف ومتى يمكن مواجهتها. رغم المرض، وجد الوقت الكافي ليحلل لقرّائه العرب آليات اتخاذ القرار في الإدارة الأميركية مع وصول المحافظين الجدد إلى الحكم. وكان من أوائل من نبّه إلى خطورة ظاهرة الأصولية المسيحية في الولايات المتحدة، وإن يكن عبّر، في الوقت ذاته، عن إعجابه بزخم حركة الاحتجاج الشعبية الأميركية ضد الحرب على العراق. وفي آخر زيارة له إلى لبنان، قبل رقاده الأخير فيه، اقترح إدراج دراسة المجتمع والدولة الأميركيين في برامج التعليم العربية بديلاً من مجرد تعليم التلامذة والطلاب العرب في كتب مدرسية أميركية أو منقولة عن الكتب المدرسية الأميركية.

في الأمر أكثر من وصيّة أستاذ جامعي. إنّه إدوارد سعيد يستعيد الهاجسين اللذين ختم بهما كتاب «الاستشراق»: التحذير من تشريق الشرقيين ومن الردّ على الاستشراق بواسطة الاستغراب. لكن «الترجمة» هذه المرّة تدرج التحذير في اللغة المفهومية لأسلوب إدوارد سعيد المتأخر، لغة إنسانوية علمانيّة قد تجاوزت الثنائيات والهويات المتعادية.

* كاتب وأستاذ جامعي لبناني